﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ [فاطر: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نفيُ التَّسْويةِ بينَ الفريقينِ تقريرٌ لِما قبلَه، وتمهيدٌ لِما بعدَه

لَمّا كانَ مِن سَمْتِ سياقِ الآياتِ تنبيهُ المُتلقّينَ الغافلينَ عن مُقْتضَى نِعْمةِ اللّه عليهم، وإيقاظُهم لشُكرِها بتوحيدِه ﷻ، وكانَ القرآنُ قد قرَّرَ عداوةَ الحياةِ الدُّنْيا والشّيطانِ للنّاسِ، وأمرَهُم باتِّخاذِه عدوًّا، وأنَّ للشّيطانِ حِزْبَه، وأنَّهم الَّذين كفروا، وأنَّ أضدادَهم همُ الَّذين آمنوا، مع إجمالِ جزاءِ الفريقيْنِ؛ جعَلَ القرآنُ نتيجةَ ذلك كلِّه نفيَ التَّسْويةِ بين الفريقيْنِ على جهةٍ تدعو إلى التَّفكيرِ في حالهما وشأنِهما في نورِ ما سبَق، وهي جهةُ الاستفهامِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زُيِّنَ﴾: أَصْلُ (زين) يدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيءِ وتَحْسينِه[1]، والزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْنِ، والتَّزْيينُ تَصْييرُ الشَّيْءِ زَيْنًا، أَيْ: حَسَنًا، فهو تَحسينُ الشَّيءِ المُحتاجِ إلى التَّحسينِ، وإزالةُ ما يَعتريهِ منَ القُبْحِ أوِ التَّشويهِ[2]، والزِّينةُ: جامعٌ لكُلِّ ما يتزيّنُ به النّاسُ، وما يَحْسُنُ في أنظارهم[3]، والمقصودُ بالتَّزْيين في الآية: تَحْسينُ ما لَيْسَ بِحَسَنٍ بَعْضَهُ أَوْ كُلَّهُ، والمُزيِّنُ للأَعمالِ السَّيِّئةِ هنا هو الشَّيطانُ.

2) ﴿سُوٓءُ﴾: (سوء) أَصْلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[4]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 179.
(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (زين).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سوأ).

والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[1]، والسّوءُ أيضًا: الحُزْنُ والغَمُّ، ويأتي بمعنى الضَّرَرِ والأَذَى، كقولِهم: بَلَغَهُ السّوءُ، أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكْرَهُ فهو سوءٌ، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، ومِن مَعانيه أيضًا: المُنْكَرُ والفُجورُ والبَلاءُ والعَذابُ والشَّتْمُ والشِدَّةُ والقَتْلُ[2]، والسّوءُ في الآية مرادٌ به: الشَّرُّ والفَسادُ والكُفر[3].

3) ﴿حَسَرَٰتٍ﴾: (حسر) أصلٌ واحِدٌ، وهو مِنْ كَشْفِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَسَرْتُ عنِ الذِّراعِ، أَي: كَشَفْتُهُ، والحاسِرُ: الَّذي لا دِرْعَ عليه ولا مِغْفَرَ[4]، ومنَ البابِ الحَسْرَةُ: التَّلَهُّفُ على الشَّيْءِ الفائِتِ، وهي أَشَدُّ حالاتِ النَّدَمِ حَتَّى يبْقى النّادِمُ كالحَسيرِ منَ الدّوابِّ الَّذي لا مَنْفَعَة فيه[5]، والمُرادُ بالحَسَرات في الآيةِ: جمعُ حَسْرَة، وهي الغمُّ على ما فاتَ والنَّدمُ عليه[6].

4) ﴿يَصْنَعُونَ﴾ (صنع) أَصلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، والصُّنع: عَمَلُ الشَّيْءِ صُنْعًا، وامْرَأَةٌ صَناعٌ ورَجُلٌ صَنَعٌ؛ إذا كانا حاذِقَيْنِ فيما يَصْنَعانِه[7]، فالصُّنع إجادةُ الفِعل، فكلُّ صُنعٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صنعًا، ولا يجوز نسبتُهُ إلى غيرِ الآدميّين[8]، والمُرادُ بالصُّنْعِ في الآيةِ: التَّدبيرُ بمَكرٍ، أي: إنَّهم يُدبِّرونَ مكائدَ للنَّبيِّ ﷺ وللمُسلمينَ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ الحقُّ سبحانه الفَرْقَ الشّاسعَ بين المؤمن والكافر، والمطيعِ والعاصي، فقال: أفمَنْ حسَّنَ له الشَّيطان سيِّئَ الأعمال مِن معاصي

تُحَذِّرُ الآيةُ مِن سُلوكِ الإنسانِ سُبُلَ الهَلاكِ؛ وهو لا يَشعُرُ

(1) الزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 264.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (حسر).
(6) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 108.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صنع).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 267.

اللّه والكفرِ به وعبادةِ ما دونَه منَ الآلهة والأوثان، فحسِبَ سيّئَ ذلك حسنًا، وظنَّ قبيحَهُ جميلًا: كمَنْ ليس كذلك؟!، فإنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ إضلالَه، فيَصرِفُه عنِ الإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ؛ ويَهدي مَن يَشاءُ هدايتَه، فيَدُلُّه ويوفِّقُه للإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ، فلا تُهلِكْ نَفْسَك يا محمَّدُ ﷺ حُزنًا على الكافرينَ؛ بسَبَبِ ضَلالِهم عنِ الحَقِّ، إنَّ اللّهَ عليمٌ بما يَصنَعُه الكافِرونَ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيهم عليه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عَلاقَةُ الآيةِ بمَعاني السّورةِ:

مِن آي السّورةِ ما هو كالأُمِّ لباقيها؛ مِن جهةِ المعنَى

القرآنُ يتحدَّثُ عنِ (النَّفْس) المُزيَّنِ لها أيًّا كانت ديانتُها، والعبرةُ بعُموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، ولكون التّزيينِ أمرًا عامًّا لتسلُّطِه على البشر كلِّهم؛ كان لجملةِ النّفي ذاتِ الطّرفين المذكورينِ جميعًا أوِ المذكور أحدُهما والآخرُ مقدّرٌ ميّزةٌ، وهو تناسبُها وتلاؤمُها وتمازجُها بكلّ آيةٍ في السّورة تُحدِّث عن عمل الكافر أوِ المؤمنِ الطّائع أوِ العاصي، أوْ عنهما معًا، أوْ عن جزاءِ أحدهما أوْ جزائهما معًا، فهي واقعة موقعَ التّعليل والتّأكيد لهذه الآيات؛ ضعْ جملةَ التّزيين هنا بإزاء قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، وآيةِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ تُبْصِرْ هذا الموْقِعَ العجيبَ[1].

بلاغةُ موقِعِ الآيةِ:

قد تقَع الآيةُ موقِعًا على خلافِ الظّاهرِ؛ لِحِكْمةٍ بلاغيّةٍ

الحالتانِ اللّتانِ تُقرِّرُهما جملةُ النّفي؛ حالةُ مَن زُيِّنَ له سوءُ عمَلِه فرآهُ حسنًا، وحالةُ مَن ليس كذلك هما الكائنتانِ بعدَ دعوةِ النّاسِ كلّهم إلى الإيمانِ الحقّ، وتحذيرهم منَ الكفر الباطلِ ودواعيه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1420.

فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وكان الظّاهرُ أن تجيءَ آيةُ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عَقِبَ هاتين الآيتيْن، ثم تأتي آيةُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ بعد آيةِ التّزيين؛ لأنَّ المقصود فيها تقريرُ جزائهما، والجزاءُ نهايةُ المطاف للفريقين.

فجَمع النّظمُ الحكيمُ "الفريقين معًا في حُكْم نداء النّاس، وجمَع ما لهما مِنَ الثّوابِ والعقابِ في حُكْم الوعد، وحذَّرَهُما معًا عنِ الغُرور بالدّنيا والشَّيطان"[1]، ومجيءُ الجزاءِ وسببه الظّاهرُ مِن الكفر والإيمان يوقعُ في النّفس معنًى؛ كيف كفر مَن كفرَ، واستحقَّ هذا العذابَ الشّديدَ بعد ما ذَكر له فاطرُ السّماوات والأرض الدّنيا وغرورَها والشّيطانَ وعداوتَه؟ فكانت في جملة التّزيين الجوابُ، وهذا احتفالٌ بالجزاء والتّزيين معًا، وتقريرُ الجزاء عَقِبَ بيان عداوة الشّيطان؛ مِمّا يُؤكِّد هذه العداوةَ في النّفس؛ لأنَّ مجاورةَ الجزاء لها يعني أنّها سببٌ فيه، والعذاب الشديد هو الحاصلُ في: ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾، وهو "النّار الشّديدة، وغلبَ في لسان الشَّرع على جهنَّم"[2]، وفي هذا احتفالٌ بالعَداوة والجزاء معًا، ومجاورتُهما تُنتِج معنى أنَّ الذين كفروا حزبُ الشّيطان المصرَّحُ به في قوله: ﴿حِزۡبَهُۥ﴾، وأنّ الذين آمنوا حزب اللّه، فهل يستوي الحزبان أيّها الرّسول؛ فتُذهبَ نفسك عليهم حسرةً؟[3].

بلاغةُ الجمعِ مع التّفريقِ والتّقسيمِ:

نتجَ عن صورة نَظْم الآياتِ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ۝ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ فنٌّ بديعيٌّ شاهدٌ على التَّماسُك الّذي بينَ عناصر النَّظم؛ مِمّا جعَل هذا البيانَ مِنَ النَّمط العالي في النَّظْم والباب الأعظم فيه، وهذا هو البابُ الذي ترجمَه الإمام عبدُ القاهر بقوله: "أنْ تتَّحد أجزاءُ الكلام، ويدخُلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأوَّلٍ، وأنْ تحتاج في الجملة إلى أنْ تضعَها في النّفس وضْعًا واحدًا"[4]، وذكَر عبدُ القاهر

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 608.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 262.
(3) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1421 - 1422.
(4) عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 93.

القـرآنُ بلَـغ الـغـايـةَ في تَماسُكِ المعاني

منه (فنَّ التَّقْسيم)، "وخصوصًا إذا قسَّمتَ، ثمّ جمعتَ[1]، والفنُّ النّاشئُ هنا عن حركة المعنى هو الجمعُ مع التّفريق والتّقسيم، أمّا الجمع فسبقَ بيانُه، "وأمّا التّقسيمُ فهو قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية؛ لأنَّه بَيَّن فيه أحوالَ الفريقين وما لَهما وعليهما مِنَ الثّواب والعقاب، وأمّا التَّفريقُ فقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ لأنّه فرّق فيه وبَيَّن التّفاوت بينَ الفريقين، كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ مِن هذين الفريقين؛ كمَن لم يُزيَّن له"[2]، فجعلُ الطّيبيّ المحذوفَ طرفًا مُقابلًا للمذكور، وبذا يكون نفيُ التّسوية ممّا يَقومُ عليه اشتدادُ ارتباطِ الكلامِ ببعضِه، وما قبل التّزيين مِن آية: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وما بعدَه مِن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مُرشِّحٌ؛ لكون المحذوف الطَّرفَ المقابلَ للمذكورِ.

سِرُّ الخطابِ بالمعنَى المعلومِ:

القـرآنُ يعالجُ المُسبَّبَ بعلاجِ السَّببِ

نفيُ استواءِ مَن زُيِّنَ لهُ ومَن ليس كذلك معنًى معلومٌ؛ فلماذا خاطب القرآنُ به أمَّةَ الدَّعوة؟ قال البقاعيُّ: "ولمّا أبان هذا الكلامُ تفاوتَ الحزبين في المآل بالهَلاك والفَوز، وكان لا يُقدِمُ على الهلاك أحدٌ فيه حِسّ، وكان الكفّارُ يدّعون أنَّهم الفائزون قناعةً بالنَّظَر إلى ما هم فيه، ويدّعونَ أنَّهم أبصرُ النّاسِ وأحسَنُهم أعمالًا، وكذا كلُّ عاصٍ ومبتدِع؛ كان ذلك سببًا في إنكار تَساويهما، فأنكرَه مُبيِّنًا السَّببَ في ضلالِهم، بما فيه تسليةٌ للمُحسنين، وندبٌ إلى الشُّكر، وحثٌّ على مُلازَمةِ الافتقار والذُّلِّ وسؤالِ العافية مِنَ الزّلل والزّيغ، فقال: ﴿أَفَمَن﴾ ..."[3].

سِرُّ العطف والتفريع بالفاء:

ردُّ الأوهـام من محاسنِ الكلام

(الفاءُ) في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها

(1) عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 94.
(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 12/ 608.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 14.

على ما تضمّنهُ الكلامُ السّابق من عدمِ التّسويةِ بينَ مآل الحزبين، الَّذي من شأنِه أنْ يُحدث إنكارًا لدى الحزب الخاسر، بأنّهم أحسنُ أعمالًا وأفضلُ أداءً، فجاءَ العطفُ السّببيُّ المشيرُ إلى سببِ الإنكار والادّعاءِ، والتّفريعيُّ الدّالُّ على تفرُّع السُّؤال عمّا قبله بـ(الفاء) مُجيبًا عن ذلك الوهم رادًّا عليهم؛ بأنّه لا يستوي المُزيَّنُ له أعمالُهُ فيراها حسنةً معَ غيرِ المُزيَّنِ له، فـ(الفاء) عاطفةٌ لِما بعدها على محذوفٍ يلائم ما بعدَها، يُقدَّر بنحو: (أتُحكِّمون الهوى وتتركون العقل والحكمة فتُسوّوا بينهما؟) ونحو: (أتغفلونَ عنِ الفرق بينكم وبين المؤمنين فتسوّوا بينكم وبينهم؟) فالمحذوفُ يُقدَّرُ قبل الفاءِ وبعدَ الهمزة، ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ تفريعًا لمعاني الآية بعدَها على جميع ما تقدَّمَ؛ للإيماء إلى استحقاقِ حزبِ الشّيطانِ عذابَ السَّعيرِ، ولتسليةِ النَّبيِّ ﷺ على مَن لم يَخْلُصوا مِن حبائل الشّيطان مِن أمّة دعوتِه بأسلوب المُلاطَفة في التَّسْلية؛ وعلى ذلك فالهمزةُ مُقدَّمةٌ مِن تأخيرٍ.

بلاغةُ الاستفهامِ:

النَّفْيُ بطريقِ الإنكارِ إحسانٌ إلى المعنَى والمُتلقّيهِ جميعًا

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ للإنكارِ اللّازمِ منه معنَى النَّفْي[1]، وأصلُ المعنى: فليسَ مَن زُيِّنَ له سوءُ عمله كمَن ليس كذلك، وإنَّما جاء النّفيُ بالاستفهام لأنَّ القوم في غفلة؛ ألا تراهم زُيِّن لهم وأُثِّر فيهم التّزيينُ، فرأوا الحسَنَ قبيحًا، والقبيحَ حسَنًا؟، فمُقتضَى حالِهم الإيقاظُ والإثارةُ والتّنبيهُ والتّحريكُ والتّنشيطُ والتّعجيبُ وما جرى في هذا الطّريق منَ المعنى؛ وذلك محضُ الاستفهام، لا يصحُّ أن يُخاطَبوا - بسبب ما هم فيه مِن تكذيب وكفر وادّعاءِ تفضيلٍ باطلٍ ... ونحوه - بالنّفي الصَّريح؛ لأنَّ المقصود أنْ يتأمّلوا ويفكّروا بحالهم، وذلك داعيةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 266، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 465.

أسلوبِ الاستفهام، فلم يقلِ القرآن لهم: (ليس مَن زين ... كمَن ليس كذلك)، وإنّما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾؛ ليتنبّهوا، فيرجعوا إلى أنفسهم ويراجعوها وتُراجعَهم، فيعلموا أنَّ ما هم عليه باطلٌ، وأنَّهم جوّزوا وجودَ أمر لا يوجد مثلُهُ مِنَ التّكذيب والكفر والتّفضيل، فإذا أنصفوا أنفسَهم أوّلًا وخصمَهم ثانيًا قالوا: ليسوا سواء، وهذا إقامةٌ للحُجَّة عليهم وإلزامٌ لهم بها؛ إذِ النّفسُ في داخلها تنطقُ بالنّفي، ولا تستطيع أنْ تُخفيَه إلّا في الواقع.

نكتةُ الحَمْلِ على اللَّفظِ والحَمْلِ على المَعنى:

حمَلَ القرآنُ على لفظِ (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ﴾ بالإفراد في: (﴿لَهُۥ﴾ - ﴿عَمَلِهِۦ﴾ - ﴿فَرَءَاهُ﴾)؛ والإفرادُ أمكنُ في تقرير النَّفي، وأدعى إلى الإلزام بالمقصود، ووجهُ ذلك أنْ ليس المطلوب مقارنةَ جماعةٍ بجماعة؛ فذلك قد يكونُ صعبًا، ولكن بينَ فرد وفرد، وذلك ممكنٌ وسهل، فيتحقّقُ المقارِنُ الفرقَ بين الفريقين وعقيدتَيْهما ويتأكَّدُ منه، وطرَفا النّفي هما الكافر والمؤمن؛ بقرينة الآية التي قبْلَها، وأمّا العدولُ عنِ الإفراد إلى الجمع بالحَمْل على معنى (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾؛ فللإيذان بأنَّه ﷺ يستوي عنده الغنيُّ والفقير والحرُّ والعبد والقويُّ والضَّعيف والتّابعُ والمتبوع ... في تعلُّق حرصِهِ الشّديد على هدايتِهم، وذلك مدحٌ له ﷺ، وبُنِي على هذا الجمعُ في قوله تعالى: ﴿يَصْنَعُونَ﴾، وعلمُه تعالى بما تصنع الجماعةُ دالٌّ بقوّة على علمِه بما يصنع فردٌ، وهو أدلُّ على التَّهديدِ والتَّرهيبِ أيضًا[1].

الإفرادُ إقامةٌ للحُجَّةِ، والجَمْعُ بيانٌ لرحمةِ نبيِّنا وكمالِ علم الله تعالى

علَّةُ التَّعبير بلفظ ﴿زُيِّنَ﴾:

عبَّر القرآنُ بمادَّة (التَّزْيين) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ﴾؛ للإشعار بالحالة النّفسيَّة للمُزيَّن له؛ مِنَ السَّهو والغَفلة واللّغو

التَّزْيينُ مِن أقوى وسائلِ الغُرورِ أوِ التَّغريرِ الشَّيْطانيِّ

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1432 - 1433.

والكفر والعصيان والبُعْد عنِ الحقيقة، ويلزم هذا إعجابُه بنفسه وافتتانُه بها ورفضُه أيَّ نقد أوْ نقاش، وما ذلك إلّا لِما غرّه باللّه الغَرور، وهذا معناه موتُ القلب وموتُ العقل، فقد ماتَ لديه التّمييزُ بين الحقِّ والباطل، وكان الحبُّ كلُّه للباطل كفرًا أوْ معصيةً، وهذا كلُّه مقصود؛ لترتُّب معنى التّسليةِ عليه، وهذا التَّزْيينُ هو الألصقُ بالغُرورِ أو التَّغْرير، والغَرور، وشدَّةِ عداوته للنّاس[1]، ونلحظُ في مادّة الفعلِ انقلابَ حقائقِ الأعمالِ التي يرتكبُها المُزيَّنُ له، فلا يراها إلّا وهي ذاتُ جمالٍ وبَهاءٍ ورَواء، مع أنَّها سوءٌ وكدَرٌ وقُبْحٌ، فيكونُ ذلك كنايةً عن عَمَى البصيرة وغَشاوة النّظر، اللّازمِ منه أيضًا عدمُ الفكر الصَّحيح والنّظرِ السَّديد لحقيقةِ عمله.

دلالةُ البناءِ للمفعول في ﴿زُيِّنَ﴾:

المُزَيَّنُ لهُم مِنَ السَّهْلِ سُرعةُ استحسانِهِم القبيحَ مِن بعدِ تزيينِهِ لهم!

حذَف القرآنُ فاعلَ التّزيين، وهو الشَّيطان؛ لكثرةِ مسالكِ (الغَرور) التي يدخلُ بها على الإنسان، فكأنَّ الفاعل الشّيطانُ وهذه المسالك، وكانَ مِنَ السَّهل حصولُ التّأثير فيهم بأيٍّ منها، وبعدَ الاستقلال أيضًا لا يكون أمامَهم إلّا اتّباعُ الهوى الذي لزِمَهم بعد قَبول التّزيين، فالحذفُ دالٌّ على كثرة الفاعلينَ له، ويمكن أن يكون الحذفُ لِما قاله البقاعيّ: "ولما كان الضّارّ هو التّزيينَ من غير نظر إلى فاعل معين بُني للمفعول قولُه: ﴿زُيِّنَ﴾ ..."[2]، والتّزيينُ مبناه الغرورُ المذكور في قوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ إذِ الغرورُ صفةٌ قائمةٌ بفاعل التّزيين، والمُزيِّن شأنُه التّدبيرُ في خفاء، وهذا من أسرار التّعبير بالغرور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: 22]، وهو يغرُّ النّاس بتزيين القبائح لهم؛ تمويهًا بما يلوحُ عليها من محاسنَ تلائم نفوسَ النّاس"[3]

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1439.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 16.
(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد: 16/ 20.

والتّمويهُ أو الإيهامُ لا يكون ظاهرًا؛ لتعلُّقِه بالنَّفس، والنّفسُ شأنُها الخفاءُ، والملائمُ للحالة النّفسيَّة القابلة للغُرور حذفُ الفاعل، فكأنَّه لخفاءِ الفعل خفيَ الفاعل منَ الكلام.

دلالةُ المُضيِّ في ﴿زُيِّنَ﴾:

القومُ الكافرونَ سريعو قَبولِ التَّزْيينِ!

نظَم القرآنُ معنَى التَّزْيين فعلًا ماضيًا في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ﴾؛ لوقوع مضمونِه، والإخبارِ بتحقُّقِ وقوعِه في أمثالِ هاتِهِ النُّفوسِ، وأنَّه يكونُ سِمَةً غالبةً عليهم، وأنَّ التَّزيينَ إنْ أصابَ أحدًا تمكَّنَ منه ورَسَخَ.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور:

ليس أحدٌ يحرصُ على ضلالِ النّاسِ كحرصِ الشّيطانِ عليه!

قدَّم القرآنُ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُۥ﴾ على نائب الفاعل في قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ على خلاف الأصلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُقدَّمَ مُعتَنًى ومُهتَمٌّ به من قبل المُزَيِّن له، وفيه إيهامُ القَصْر، وأنّه خصوصًا أهلٌ للتّزيين؛ لأنّ الشَّيطان وغيرَه يُزيِّنون للنّاس كلِّهم؛ لأنَّه عدوٌّ لهم جميعًا، وبذا فالتّقديمُ يُفسِّر المجاز في قوله: ﴿حِزْبَهُۥ﴾، ويُعلِّلُ الغرابةَ والدّهشة النّاتجةَ عنهما، ولذا كان الأمرُ بالاتِّخاذ له عدوًّا للنّاس جميعًا في هذه السّورة[1].

علّةُ التّعبيرِ بـ(السّوء):

التَّزْيينُ في ظاهرِهِ جمالٌ، وفي باطنِه سوءٌ!

عبَّر القرآنُ بـ(السّوءِ) في قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ للتَّنْفير والتَّرهيب مِن قَبول التَّزيين، ومِنَ الشّيطانِ المُزيِّن ومِن غيرِه؛ لأنَّ السّوءَ كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمور الدُّنْيويَّة والأخرويَّة ومِنَ الأحوال النَّفْسيَّة والبدنيَّة، والخارجةِ مِن فواتِ مالٍ وجاهٍ، وفَقْدِ حميمٍ[2].

علّةُ التّعبيرِ بالعمل:

ما أبصرَ الشّيطانُ مدخلًا إلى تضليلِ الإنسانِ إلّا سلكَهُ

عبَّر القرآنُ بالعملِ في قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على قوَّة التَّزْيينِ بما فيه مِن عمومٍ؛ حيثُ يشملُ كلَّ ما يكونُ مِنَ الإنسانِ

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1439.
(2) الراغب، المفردات: (سوأ).

مِن فِعْلٍ بقَصْدٍ[1]، سواءٌ كانَ قولًا أوْ فعلًا، والتَّعبيرُ به يتوافقُ معَ التَّعبيرِ بالعمل في جانبِ أهلِ الإيمان في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ كأنَّ فيه دعوةً قويَّةً إلى المقارنة بينهما، وإشارةً إلى أنَّ الأعمالَ السَّيِّئةَ تصيرُ بالتَّزْيينِ أعمالًا صالحاتٍ في أبصارِ المُزَيَّنِ لهم وبصائرِهم!

معنَى (الفاء) ودلالةُ التَّعبير بها:

التَّزْيينُ قويٌّ، والمُزَيَّنُ لهُ ضعيفٌ

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ للسَّببيَّةِ والسُّرعةِ؛ وهي تدلُّ على نفي وجودِ أيِّ مقاومةٍ للتّزيين، وبهذا كان ما بعدَها مُسبَّبًا عمّا قبلها؛ إذِ الاعتقادُ المذكورُ مقامٌ عظيمٌ في باب الضَّلال، وهو لا يكون بادئ ذي بدأ، بل بعدَ سببٍ ودافعٍ هو التّزيينُ، ولو كان العاطفُ (ثمّ) كانتِ الغرابة منَ المعطوف، ولكنَّ (الفاء) آنسَتِ النّفوسَ وهيّأتها لتَلقّيه، ومعنى التّعقيب والسُّرعة وجهُ ذلك، ومحصولُ ذلك أنّهم حزبُ الشّيطان[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بالرُّؤْيةِ:

الرُّؤْيةُ أدلُّ على قَبولِ التَّزيينِ بقوَّةٍ

قولُه تعالى: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ يدلُّ على ادّعائهم أنّ السيّئةَ حسنةٌ؛ لأنَّ التّزيينَ يقتضي فعلَ السيّئة، واعتقادَها حسنةً يلزمُ منه الادّعاء، وفاعلُ (رأى) الضّميرُ العائد على (مَن)، و(الهاءُ) مفعولٌ أوَّل، و﴿حَسَنًا﴾ مفعولٌ ثانٍ، "ورأى إذا عُدّي إلى مفعولين اقتضى معنى العلم"[3]، وهاهنا كذلك؛ فالرُّؤيةُ هنا قلبيّةٌ، ولفظُها الاعتقاد، فثَمّ تجوّزٌ في: (رأى)؛ إذِ استعيرتِ الرّؤيةُ التي هي إدراكُ المرئيّ للاعتقاد؛ بجامع أنَّ كلًّا منهما سبيلٌ لتحقيق الإدراك، والقرينةُ أنَّ التَّزْيينَ هنا نفسيٌّ، واعتقادُ السّوء حسَنا حسَنٌ عند المُزيَّن له؛

(1) الراغب، المفردات: (عمل).
(2) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1443.
(3) الراغب، المفردات: (رأى).

وإن كان غيرَ صواب في الحقيقة، والمسألةُ في الآية تتعلّقُ بالحِلِّ والحُرمة، والأحكامُ تُعتَقد ولا تُشاهَد، وجملةُ التّزيين تعليلٌ لجعلِ الحرام حلالًا، ونكتةُ المجاز المبالغةُ في بيان حصول الاعتقاد، والتّنبيهُ على أنَّ صاحبه يُذيعه ويُشهره ويُحارِبُ به ومن أجله، كأنّه شيءٌ محسوس.

سرّ مجيء ﴿حَسَنًا﴾ منكّرًا:

عجيبٌ وغريبٌ أنْ يكونَ السّوءُ في غايةِ الحُسْنِ!!

نظَم القرآنُ المفعولَ الثّانيَ لفعل الرُّؤية نكرةً في قوله: ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾؛ للدّلالة على فَخامته وعظمتِه؛ أي: إنَّ حسنَهُ جليٌّ واضحٌ قويٌّ مِن آثارِ التَّزْيين، وهذا مِن شأنِه أنْ يُثير الغرابةَ والعجبَ في نفوس المُتلقّين؛ لأنَّ الكفرَ أحدُ الأشياء التي زُيِّنت أوْ تُزَيَّنُ للإنسان، وبالتَّزْيين يصيرُ في غاية الحُسْنِ، وهكذا كلُّ ما ينصبُّ عليه التَّزْيينُ.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ (السّوء والحسَن):

التَّقابُلُ إحسانٌ إلى المعنَى والمُتلقّي جميعًا

بينَ (السّوء والحسَن) إمّا طباقٌ ظاهرٌ؛ إذا روعي أنَّ القبيح يُعبَّر عنه بالسَّيِّء، والقرآن "عبَّر عن كلِّ ما يقبح بالسّوأى، ولذلك قوبِلَ بالحسنى، قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10]، كما قال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: 26]، والسّيِّئةُ الفِعْلةُ القبيحة، وهي ضدُّ الحسنة ..."[1]، وإمّا طباق خفيٌّ؛ إذا لم تكنِ المراعاةُ، حيثُ سوءُ العمل يستلزمُ قبحَه عند النّفوسِ السّوِيَّة، وفيه مزيدُ قوّةٍ في الإبانةِ عن سِمَةِ القوم، ومزيدُ إيضاحٍ لوجوبِ ذمِّهم، وذلك ما يفعلُه التّقابلُ في النّفس.

سرُّ التّعبيرِ عنِ الكافرِ بمضمونِ الصِّلةِ:

في الصّلة تصويرٌ دقيقٌ لنفسيَّة الكافرِ

في تعبير القرآنِ عن (الكافر) الذي هو مِن حِزْب الشّيطان بمعنَى الصِّلة شناعة فعله، وقبح وصفه، قال الآلوسي: "وفي التّعبير عنِ الكافر بـ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ إشارةٌ إلى

(1) الراغب، المفردات: (سوأ).

غايةِ ضلالِه، حتى كأنَّه غُلِب على عقله، وسُلِبَ تمييزُهُ، فشأنُ المغلوبِ على عقله ذلك"[1].

بلاغةُ الإيجازِ والاكتفاءِ والكنايةِ:

ذِكْـرُ الـصّـورةِ الأعلى هي الأَبَرُّ بالسّياقِ وقصدِه وحـركـةِ المعنى فيه

رؤيةُ القبيح حسنًا مشيرٌ إلى عكسه، وهي رؤيةُ الحسَنِ قبيحًا، فهاتان صورتانِ، المذكورةُ في النّظم أصلٌ للثّانية، فاكتُفي بالأصل لدلالته على الآخر، ولأنّ متعلَّق مرضهم الكفرُ، وهو وصفُهم قبل مجيءِ الإسلام، ولأنّ الاحتشاد كثيرٌ كونُه لإثبات حُسْنِ قبيحٍ، وقليلٌ أن يكون لإثباتِ قبحِ حسنٍ، والأوّلُ مبدؤُهم وغرضُهم، والثّاني طارئٌ عليهم بمجيءِ الرّسول محمّد ﷺ ؛ من أجل ذلك اقتصرَ القرآن على الصّورة التي نظمَها ناقلًا بدقّةٍ وصفَ القوم؛ إذِ الصِّلة معلومةٌ لديه بقوّة، وإنْ كان غافلًا عنها؛ فطلبُ الكفِّ يكونُ أقوى حين يُبنَى على ذكر التّزيين والرّؤية قبْلَه، وصدرُ المعقِد تصريحٌ بتكذيبهم، وهم لا يكذّبون الرّسول، ولكنَّ الظّالمين بآيات الله يجحدونَ، فلا يتأتّى لهم جحودُها إلّا إذا تبدّلتْ حقائقُها، وهو لا يكونُ إلّا بالتّزيين، والحاصلُ أنَّ هنالك اكتفاءً في تزيينِ القبيح على أنَّه حسَنٌ، ويُفهمُ منه تصوير الحسن على أنَّه قبيح؛ لأنَّ مَن زُيِّنَ له القبيحُ حسنًا فمِنَ المؤكَّد أنَّ نقيضَه منَ العمل الحسَنِ يكون لديه قبيحًا ،؛ لأنّه يعتقدُ أنّ ما هو عليه حسنٌ وغيره قبيحٌ، وفي ذلك كنايةٌ عن حالة الجمودِ التي تلازمُ عقولَهم على ما ورِثوه من معتقداتٍ وأعمالٍ فاسدة.

سِرُّ حذفِ الخبر في الاستفهام:

الحذفُ إحسانٌ إلـــى أهـــلِ التَّكذيبِ والكفرِ خصوصًا

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ تسوية لطرف مقدّر محذوف، وسبيلُ التقدير باعتبار كونِ (مَنْ) موصولةً أوْ شرطيّةً، وباعتبار تعدُّدِ قرائن السّياق، والمختارُ أنَّ (مَنْ) موصولٌ مُبتدأ، وما بعده صلتُهُ، والخبرُ محذوفٌ، يُقدّرُ بنحو: (كمن لم يُزين له)

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 169.

على معنى أنَّه لم يُؤثِّرْ فيه التّزيينُ، وهذا ما يقتضيهِ النّظرُ عندَ أبي حيّانَ، وقوّاه بأنَّ هذا أسلوبٌ قرآنيٌّ، فيشهدُ لمثلِ هذا التّقدير نحوُ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾ [محمد: 14] وقوله: ﴿*أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرعد: 19] وغيرِهما، وحسّنَه السَّمين الحلبيّ؛ لموافقتِهِ لفظًا ومعنىً[1]، ولاشتمالِ السّورة على نفيِ التّسوية هذا صراحةً مرّتين، ونبّه الرّازي على هذا بقوله: "يعني: ليس من عملَ سيّئًا كالَّذي عملَ صالحًا، كما قال بعد هذا بآيات: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠﴾ [فاطر: 19 - 20]"[2]، وما ذكروه من تقديرات، نحو: (كمن هداه اللّه)، و(كمن اهتدى)، و(كمن علم الحسنَ والقبيحَ وعمل بما علمَ ولم يُزين له سوءُ عمله)، وغيرِها فإنّها تُفهَمُ مِنَ المقابلة بين الطّرفين تحتَ تنبيهِ الاستفهام.

وأيًّا ما كانتْ صيغةُ الطّرفِ المُقابل للمذكورِ فبلاغةُ (الحذف) متمثّلةٌ في الدَّرجةِ الأولى فيما ينتابُ النّفسَ عند سَماعِ الآية، والحذفُ يجعلُ النّفس تذهبُ في تخيُّل المحذوفِ كلَّ مذهبٍ مُمكنٍ، وقد فسَّر البقاعي الحذفَ بقوله: "وطوى المشبَّهَ به، وهو (كمَن أبصرَ الأمورَ على حقائقِها، فاتّبَعَ الحسنَ واجتنبَ السّيِّءَ)؛ لأنَّ المقام يَهدي إليه، وتعجيلًا بكشفِ ما أُشكِل على السّامع منَ السَّبب الحاملِ على رُؤيةِ القبيح"[3]، والنّفسُ الحيّة يُفزعها النّموذجُ المعروض، فطوي المسندُ؛ للتّعجيل بما يُؤنسها.

نكتةُ ذكر الطَّرفِ المُفضَّلِ عليه:

في هذا التَّقديمِ فَـــزْشٌ لطيفٌ لجملةِ النَّهي اللّاحِقَةِ

آثر النّظمُ الكريمُ تقديمَ المزيّن له على غير المزيّن له في قوله:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 300، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 213 - 214.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 266.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 14 - 15.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾، وهو دالٌّ على صَرْفِ الرَّسول ﷺ حرصَه كلَّه إلى هذا الطّرفِ؛ وبهذا يتّضح تعلّقُ التّقديم بالحذف، وأنَّ أحدَهما بسببٍ منَ الآخر.

معنَى (الفاء) ودلالةُ التّعبير بها:

ما بعدَ (الفاءِ) هنا ركيزةٌ لِما قبلَها

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ للتَّفريعِ والتّسبيبِ والتّعليلِ فـ:"لمّا نفى التّسويةَ بَيْنَهُما والمشابهةَ اتَّجهَ لسائلٍ أنْ يقولَ: لمَ هذه التّفرقةُ ونفيُ التّسويةِ؟ فقيل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾"[1]؛ فقد فرّعتْ ما بعدَها على ما قبلَها، وهو جملةُ التَّزْيين؛ والمُفرَّعُ مِن شأنِه أنْ يَكْشِفَ ما أشكَلَ على المُتلقّي مِنَ السَّببِ الحاملِ على رؤيةِ القبيح حسنًا، والحسَنِ قبيحًا! ومَن علِم مضمونَ ما بعدَ (الفاءِ) مِن كونِ إضلالِ مَن يشاءُ وهدايةِ مَن يشاءُ بيدِ اللّهِ سبحانه استقرَّ في نفسِه بسرعةٍ وقوَّةٍ أنَّ مِنَ النّاسِ مَن زُيِّنَ له سوءُ عملِه فرآه حَسَنا، ومَن ليس كذلك، وعظُم في نفْسِه كونُ اللّه مُضِلًّا مَن يشاءُ، وهاديًا مَن يشاءُ؛ فما بعدَ الفاء "تقريرٌ للتَّسْلية، وتأْييسٌ مِن اهتداءِ مَن لم يَخْلُقِ اللّهُ فيه أسبابَ الاهتداءِ إلى الحقِّ مِن صحيحِ النَّظَر وإنصافِ المُجادَلة"[2].

علَّةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالةِ:

للألوهيَّة الحقَّة مِنَ العِلْم والحِكْمة ما ليسَ لغيرها

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ الجامعِ لجميعِ معاني الأَسماءِ والصِّفاتِ؛ لدعوةِ الرَّسولِ ﷺ ومَن معَه مِن أهلِ الإيمانِ في كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ وجنسٍ إلى التَّسْليمِ للّه الملِكِ الأعظمِ الحكيمِ العليمِ الخبيرِ في شأنِ المُكذِّبينَ المُعاندينَ، وليكونَ الاسمُ الأعظم كالعلَّة لذلك الشَّأن العظيم والفعلِ الخطير المتمثّلِ بخَلْقِ الهدايةِ والضَّلالِ في قلوبِ المُكلَّفين.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتهما على تفسير البيضاوي: 16/ 18.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 264.

علَّةُ التَّعبير بالإضلال:

الإضـــلالُ مُـؤسَّـسٌ على الـغُـرورِ بالدُّنيا والشَّيطان

عبَّر القرآنُ بـ(الإضلالِ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾؛ للإشارةِ إلى ما فيه أهلُ التَّكذيبِ والكفرِ وحِزْبُ الشّيطانِ مِن ضلالٍ، أي: عُدولٍ عنِ الطّريقِ المستقيمِ، وهو ضلالٌ في معرفةِ اللّهِ تعالى وما يَتْبَعُ تلك المعرفةَ، وهذا الوصفُ مِن شأنِه توكيدُ التَّأييسِ مِن هؤلاءِ المُكذِّبينَ، الذين زُيِّنَ لهم سوءُ عملِهم فرأوْه حسَنًا، ولمّا كان أصلُ هذه الكلمة يدلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذَهابِه في غيرِ حقِّه[1] كانَ ذا نَسَبٍ ورَحِمٍ بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، وكأنَّ خلقَ (الضّلال) لهم لِما أنَّ قلوبَهم يَسهُلُ عليها الوقوعُ تحتَ طائلةِ التّزيينِ والغُرورِ، فلم تستحقَّ الهدايةَ ولم يُكتَبْ لها التّوفيقُ، ومن ثمَّ جاءت صيغةُ (الإفعال) للدّلالةِ على إيصالِ الضَّلال لهم نتيجةَ هوانِ اللّه تعالى في أعيُنِهم وغفلتِهم عن عداوةِ الغَرور لهم.

علَّة التَّعبير بالهداية:

سـبـحـانَ مَـن يسَّر لنا طريقَ الوصولِ إليه!

عبَّر القرآنُ بـ(الهداية) في مقابل (الإضلالِ) في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ تأسيسًا على ذِكْرِ نعمةِ اللّه على النّاسِ في أوَّلِ السّورةِ، وأمرِهم بذِكْرِها، أي: شُكْرِها، معَ تقريرِ أنَّ اللّه هو خالقُهم ورازقُهم، ولا إله إلّا هو؛ ووجهُ ذلك أنَّ "الهداية: الدَّلالةُ بلُطْفٍ"[2]، ولا أدلَّ على اللُّطْفِ والتَّلطُّفِ مِنَ التَّوجيهِ إلى اللّه مِن طريقِ نعمِه ورحمتِه ورزقِه.

بلاغةُ الإسنادِ إلى لفظ الجلالة:

اللـه هـو خـالـقُ المـسـبَّـبـات والأسباب

أسندَ القرآنُ كلًّا مِنَ (الإضلالِ والهداية) إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وإسنادُهما إليه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضَلل).
(2) الراغب، المفردات: (هدي).

تعالى حقيقيٌّ؛ لأنَّه خالقُ أسبابِ الضَّلالِ والاهتداءِ وخالقهما لكمالِ علمِه بمخلوقاتِه وأحوالِهم وما رُكِّبوا عليه وما يختارونَه من خيرٍ أوْ شرٍّ؛ وذلك مِن تصرُّفِه تعالى بالخَلْق؛ وهو سِرٌّ مِنَ الحِكْمة عظيمٌ، لا يُدْرَكُ غَوْرُه[1]، وإسنادُهما إليه في الظّاهرِ إبلاغٌ في تقريرِ خَلْقِه أسبابَهُما، وتحريكٌ للنَّفْسِ اليَقْظَى إلى فَهْمِ ذلك ليستقرَّ فيها؛ لحصولِها عليه بعدَ شيءٍ مِنَ التَّأمُّلِ والتَّفكُّر؛ فتتسلَّى ويخِفُّ حَيْرتُها وعجبُها مِن هؤلاءِ المُكذِّبينَ، ولتسكُنَ نفسُ النّبيِّ ﷺ من عدمِ تمكُّنِه هدايتَهم وإيصالَ الإيمانِ إلى قلوبِهم مُقرِّرًا له أنَّ فاعلَ ذلك هو اللّهُ تعالى.

دلالةُ الفعل المُضارع ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿وَيَهْدِى﴾:

تَـجَـدُّدُ خَـلْـقِ الأَسْـبـابِ دالٌّ عـلـى كـمـالِ الأُلوهيَّة

لّمّا كان إسنادُ الإضلالِ والهدايةِ إلى اللّه بواسطة خَلْقِه أسبابَهما مع خلقِهما في قلوبِ عبادِه على وفقِ علمِه العظيم بهم وبأحوالِهم، وكانَتْ هذه الأسبابُ متفاوتةً فكانت متجدِّدةً، دلالةً على أنَّه الفاعلُ القادرُ المختارُ؛ صوَّر القرآنُ ذلك بنَظْمِ كلٍّ منهما فعلًا مضارعًا في قوله الجليل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿مَن﴾:

مَـن يُـضِـلُّـه اللهُ ومَـن يهـديـهِ اللهُ لا يَكادُ يَنْحَصِرُ!

كلمة: ﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٍ عامٌّ للعاقل؛ يصدقُ على المُذكَّرِ والمُؤَنَّثِ والمُفْرَدِ والمُثَنَّى والجَمْعِ؛ وهي مفعولُ ﴿يُضِلُّ﴾، ومفعولُ ﴿وَيَهْدِى﴾ في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، والعمومُ الذي فيها يُشيرُ إلى عظَمةِ كلٍّ مِنَ الإضلالِ والهدايةِ، وفخامتِهما؛ أي: عظَمَةِ خَلْقِهما وخلقِ أسبابِهما، وفخامتِه؛ وهذا يُصَوِّرُ جانبًا مِن حقيقةِ الألوهيَّةِ الحقَّةِ؛ مِن شأنِه أنْ يُقيمَ نبيَّنا محمّدًا ﷺ وأهلَ الإيمانِ في مقامِ التَّسْليم للّه في شأنِ هؤلاءِ، الذين زُيِّنَ لهم سوءُ عملِهم فرأوه حسَنًا؛ وعلى جهةِ التَّرقّي والكمالِ بالنِّسْبةِ لنبيِّنا ﷺ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 264.

علَّةُ التَّعبيرِ بالمشيئةِ:

مشيئةُ اللهِ تابعةٌ للعِلْمِ المتعلِّقِ بالأشياءِ على ما هيَ عليهِ

عبَّر القرآنُ عنَ الصّلة بالمشيئةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾؛ وهي مِنَ اللهِ الإيجادُ، وهيَ منهُ تقتضي وجودَ الشَّيْءِ؛ ولذلكَ قيلَ: ما شاءَ اللّهُ كانَ، وما لم يَشأْ لم يكُن؛ تناغيًا معَ ما تجرَّدَتْ له السّورةُ؛ مِن تعْريفِ العبادِ بالاختراعِ والخَلْقِ؛ وبذِكْرِ المشيئةِ الإلهيَّةِ تتلاشَى فكرةُ استبعادِ أنْ يوجَدَ مِنَ النّاسِ مَن زُيِّن له سوءُ عملِه، فرآه حسنًا، وإنَّما عبَّر عنِ المفعولِ بـ(الموصول والصِّلة)؛ للإشارةِ إلى أنَّ علّةَ الإضلالِ والهداية هي المشيئةُ التي لا يُحيطُ بها أحدٌ من خلقِهِ؛ لأنَّها تتعلّق بعلمٍ محيطٍ بمَن خلقَ وأحوالِ خلقِه، التي تستحقُّ الهدايةَ والإضلالَ.

دلالةُ المضارعة في ﴿يَشَآءُ﴾:

صيغةُ اللَّفظةِ تدلُّ على شيءٍ يتعلَّقُ بمعناها

نظَمَ القرآنُ معنَى (المشيئةِ) فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾؛ نظرًا إلى تَجدُّدِ مُقْتضَى المشيئةِ الإلهيَّة؛ مِن وجودِ الشَّيءِ، وتكرارِه، واستمرارِه، وهذا يُعرِّفُ باللّه تعالى؛ في مواجهةِ التَّكذيبِ مِن أهلِ الكفرِ.

سِرُّ حذفِ مفعولِ المشيئة:

في هذا الحذفِ حَسْمُ الألوهيَّةِ وفَصْلُها، وتقريرُ مشيئتِها

حذَف القرآنُ مفعولَ فِعْلِ المشيئةِ في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾؛ معَ أنَّه مُتعدٍّ؛ والتَّقديرُ: فإنَّ اللّه يضلُّ مَن يشاءُ إضلالَه، ويهدي مَن يشاءُ هدايتَه؛ وقد دلَّ على المحذوفِ بقوَّةِ لفظُ الفِعْل؛ فمِن دواعي الحَذْفِ الإيجازُ، ومنها: الإشعارُ بنَفاذِ هذه المشيئةِ؛ ففيه تصويرُ تفرُّدِ القدرة الإلهيَّة وطَلاقَتِها وهيمنتِها وسلطانِها العالي؛ والحذفُ يساعدُ النَّفيَ في بناءِ النَّهي عليه، ووقوعِه موقعَه مِن قلْبِ الرَّسولِ ﷺ[1]، ومنها: تحريكُ نفسِ المتلقّي لمزيدٍ مِنَ التَّفكيرِ في مضمونِ الجملتيْنِ المُتعاطفتيْنِ عن طريقِ تأويلِ

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1453.

الحذفِ، وفقْهِ المحذوفِ وسِرِّه؛ فيتمكَّنُ المعنَى فيها؛ وذلك سبيلٌ لتحقُّقِ المقصودِ منه؛ وهو دَفْعُ استبعادِ وجودِ نموذجِ مَن زُيِّن له سوءُ عملِه فرآه حسنًا.

دلالة العطف في ﴿وَيَهۡدِي﴾:

الهدايةُ كالإضلالِ؛ في الانطلاقِ على الحِكْمةِ الإلهيَّةِ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ عاطفةٌ لما بعدَها على ما قبلَها؛ وهي جملة: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾؛ لما بينَهما منَ التّوافقِ الخبريِّ لفظًا ومعنى، ولتقارُنِ الضّلال والهدايةِ في الخيال؛ والمسندُ إليه والمفعول واحدٌ، بقي أنَّ بين الهداية والإضلال طباقًا، غرضُه بيانُ قدرةِ اللّه العظيمةِ وإرادتِه المحيطةِ وعلمِه التامِّ بالأشياء، فليس على الدُّعاة إلّا التّسليمُ والرّضا بتلك المشيئة، وأنَّ واجبَهم الحقيقيَّ هو التّبليغُ ليس إلّا، فلا تَنزعجوا من عدمِ الهداية لبعضِهم، ولا تغترّوا بحصولِ الهداية على أيديكم؛ لأنَّ ذلك خلقُ اللّه وحدَه.

نكتةُ تقْديمِ الإضلال:

تسلية الرَّسول بتحقُّق وقوع مشيئة الله تعالى

قدَّم القرآنُ الحكيمُ جملةَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ على جملة: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ القَصْدَ تسليةُ الرَّسولِ ﷺ، والتَّخْفيفُ منَ الحَيْرةِ والعَجَبِ والغَرابةِ التي تعتري النَّفْسَ من سَماع التّبليغ وعدم الاهتداءِ للحقِّ، كما يتطابقُ هذا التّقديمُ مع تقديمِ ذكرِ التّزيينِ للكافرينَ دونَ مَن لم يُزيَّن لهم.

معنَى (الفاء) في ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾:

ربطُ النَّهي بجميعِ ما قبلَه أبلغُ

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ للتَّفريع والتّعقيبِ والتّسبُّب؛ أي: تفريعِ ما بعدَها على مجموعِ ما قبلَها، من قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لأنَّ تفريعَها على جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ تفريعٌ له على: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾؛ فالنَّفي ممهِّدٌ للنَّهي، والنَّهيُ مفرَّعٌ عليه؛ وهذا أتمُّ في إقناعِ النَّفْس بالنَّهي،

وامتلاكِه إيّاها، ودَفْعِ أيِّ شُبْهةٍ قد ترِدُ في الخاطِر حولَ استنفادِ الأسبابِ، فإنَّ مَن عرفَ أنَّ سببَ التّزيينِ هي المشيئةُ فإنَّه لا يحزنُ على ذلك الضَّلال، ولو قُدِّمَ النَّهيُ على النَّفي أوْ على جملةِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾ لَما كانَ كذلك[1]، ومآلُ المعنى على جعْلِ التَّفريعِ على جميعِ ما قبلَه مِنَ الآية: أفتَتَحسَّرُ على مَن زُيِّنَ لهم سوءُ عمَلِهم، فرأوه حسَنًا، واختاروا لأنفسِهم طريقَ الضَّلال؛ فإنَّ اللّه أضلَّهُم باختيارِهم، وهو قد تصرَّفَ بمشيئتِهِ؛ فهو الذي أضلَّهم، وهدَى غيرَهم بمشيئتِهِ وإرادتِهِ التي شاءَ بها إيجادَ الموجودات، لا بأمرِهِ ورضاهُ الّذي دعا به النّاسَ إلى الرَّشاد؛ فلا تذهبْ نفسُكَ عليهم حَسَراتٍ[2].

غرضُ النَّهْيِ في ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾:

الـرَّسـولُ ﷺ شديدُ التَّحسُّر عـلى ضـلال قومه!

دخلتْ (لا) النّاهيةُ على الفعلِ المضارعِ في قوله تعالَى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾؛ والنَّهْيُ موَجَّهٌ صَراحةً إلى رُسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ، والغرضُ مِنَ النَّهْيِ النُّصْحُ والإرشادُ، وتحقيرُ العُنْصُرِ البشريِّ المُتعلِّقِ بالنَّهْي؛ وهُمْ مَن زُيِّن لهُم سوءُ عملِهم، فرأوهُ حسَنًا، وإجلالُ المنهيِّ؛ وهو نبيُّنا محمّدٌ ﷺ، والغرضُ منَ النّهي أيضًا الإشفاقُ على النّبيّ ﷺ، وإنَّما عُبّر عنِ الإرشاد والإشفاقِ بأسلوبِ النَّهي؛ لشدّة حرصِه ﷺ على هدايةِ قومِهِ الحرصَ الشَّديدَ، فصار النّهيُ تكليفًا له بالتّبليغِ دونَ النّظر إلى النّتائج، الّتي هي من أخصِّ شؤونِ أفعالِ اللّه تعالى الخاصّةِ بعظمتِه.

فائدة التعبير بـ ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾:

نبيُّنا يُنْفِقُ كلَّ نفيسٍ؛ مِن أجلِ هدايةِ النّاسِ

عبَّر القرآنُ بـ(الذَّهابِ) مضارعًا مجزومًا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ وأرادَ به التَّلفَ والعدَمَ؛ على جهة الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّةِ؛ إذ شبَّه فعلَ الإهلاكِ بالذَّهابِ بجامعِ الزّوالِ

(1) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم، دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1448.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 265.

في كلٍّ، ثمَّ حذفَ المشبّه؛ تجسيمًا للإهلاكِ وإخراجًا له مَخرجَ المحسوساتِ؛ لتتحقّقَ للنّاظرِ صورةُ التّلفِ الشّديدةُ والتّحسُّر الكبير، التي كانت تظهرُ على النّبيِّ ﷺ بشكلٍ واضحٍ؛ وللإشعارِ بعظيمِ حِرْصِ نبيِّنا ﷺ على هدايتِهم ونجاتِهم؛ بذِكْرِ عملِه مِن دعوةِ أهلِ الكفرِ إلى الإيمانِ ذَهابًا وإيابًّا؛ والذَّهابُ فيه معنَى الجلالِ والنَّفاسَة والفخامةِ؛ ومَن يُراجِعُ استعمالاتِ هذه المادَّةِ في كلامِ العَرَبِ يَفْهَمُ ذلكَ، وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّ إسنادَ النَّهيِ إلى نفْسِه ﷺ قرينةٌ على هذهِ الاستعارة[1].

بلاغةُ توجيهِ النَّهْيِ إلى نَفْسِ نبيِّنا ﷺ:

نَـفْـسُ نبيِّـنا ونَفْسُ المُزَيَّنِ لهُ شَتّانَ ما هُما

أسندَ القرآنُ الفعلَ المنهيَّ عنه إلى نَفْسِ رسولِ اللّه محمّدٍ ﷺ؛ على قراءةِ فتحِ التّاءِ ورفعِ السّينِ من: ﴿تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾، ووقَع هذا الفعلُ على نفْسِه ﷺ؛ على قراءةِ ضمِّ التّاءِ ونصبِ السّينِ في: ﴿تُذْهِبْ نَفْسَكَ﴾[2]، ووراءَ توجيهِ النَّهْيِ إلى نفْسِه الشَّريفةِ لَفْتُ الرَّسولِ إلى حقارةِ هذهِ النَّفْسِ المُزَيَّنِ لها؛ ليُقلِّلَ مِن شديدِ حرصِه على هدايتِها، وإلى نفاسةِ نفسِه الشَّريفةِ ﷺ، واشتمالُ النَّفْسِ على الحَسَراتِ أبلغُ في تصويرِ جهدِه ﷺ في دعوتِهم إلى الحقِّ، وحرصِه على هدايتِهم مِن اشتمالِ القلبِ عليها؛ بأنْ يُقال: (فلا يذهب قلبك عليهم حسرات).

دلالةُ الإضافةِ في ﴿نَفْسُكَ﴾:

إنَّ نَـفسًا جِـدُّ حـريـصـةٍ على هـدايـةِ النّـاسِ لـهـيَ أشـرفُ النُّفوسِ

في إضافةِ (النَّفْسِ) إلى ضميرِ رسولِ اللّه محمّدٍ ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ إفادةُ شَرَفِ نفْسِه ﷺ، وجلالِها وعظمتِها وفخامتِها، وفيه أيضًا تنبيهٌ قويٌّ لطيفٌ على الفَرْقِ بينَ نَفْسِ نبيِّنا ﷺ ونَفْسِ المُزيَّنِ له سوءُ عملِه؛ فقدِ انتزَع القرآنُ مِن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 265.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 351.

نفْسِه الشَّريفةِ نفْسًا أخرى؛ على طريقةِ التَّجْريدِ؛ فيَتقرَّرُ أنَّ المُبلِّغَ نفْسانِ لا واحدةٌ؛ وفيه "فائدةُ توزيع النّهي والخطاب على شيئينِ في ظاهر الأمر، فهو تكريرُ الخطاب والنَّهي لكليهما ... وفائدةُ التّكريرِ الموجَب تقريرُ الجملة في النَّفس"[1].

دلالةُ التَّعْبير بحرف الجرّ (على):

عبّر النّظمُ القرآنيُّ بحرف الجر (على) في قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾: وهو متعلِّقٌ بالفعْلِ ﴿تَذْهَبْ﴾؛ كما تقولُ: هلكَ عليه حُبًّا، وماتَ عليه حزنًا، ويجوزُ أنْ يتعلَّق بـ: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾؛ لأنَّ المصدر وإن كانت لا تتقدَّم عليه صلتُه لكن تُسومِحَ في ذلك بالظّرف والمجرور[2]، وعبَّر به إشارةً إلى عظيم إقبالِه ﷺ على النّاسِ من أهل الكفرِ خُصوصًا؛ فهو مُتتبِّعٌ لأحوالهم، محيطٌ بهم، يُحاوِلُ أنْ يَتطلَّعَ على نفسيّاتِهم؛ حتَّى يُعالجَها؛ لِتَقْبَلَ هُدَى اللّه، وفي جوازِ تعلُّقِ (الحرف) بالمتقدِّم عليه والمتأخِّرِ إشارةٌ إلى أنَّ إذهابَ النّفس والتّحسُّر متعلّقانِ بالقوم، وأنَّ شدّة التّحسُّر توصلُ إلى الإهلاك، وكأنَّ الحرف مرتبطٌ بهما معًا لرسمِ صورةِ الإشفاق الشَّديدة.

نبيُّنا محمّدٌ أرْحَمُ الخَلْقِ بالخَلْقِ

نكتةُ تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

بناءً على تعلُّق الجارِّ والمجرور بـ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ دون ﴿تَذْهَبْ﴾ فقد تقدَّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على متعلَّقِه في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾؛ تخصيصًا؛ وتنبيهًا على أنَّ المُحدَّثَ عنهم يكونُ منهم ما يتسبَّبُ في حدوثِ الحَسَراتِ من نبيِّنا ﷺ؛ فهم محلُّ نظَرِ نبيِّهم وشُغلِه وهَمِّه؛ وهذا تصويرٌ لواقعِ موقفِ نبيِّهم منهم، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ القبائحَ التي تكونُ منهم تُحقِّرُهم؛ فيكونُ من شأنِها أنْ تتسبَّبَ في تخفيفِ حسراتِه ﷺ وتقليلِها.

ما تحسَّر عليهم إلّا لمّا كانوا في محلِّ عنايتِه واهتمامِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 265 - 266.

(2) محي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 12/ 265.

عِلَّةُ التَّعبير بلفظ ﴿حَسَرَٰتٍ﴾:

كـلُّ غـمِّـه ﷺ؛ مِـن أجـلِ هدايةِ النّاسِ!

تُعرَبُ ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ مفعولًا لأجله؛ والمعنى: فلا تُهلِكْ نفسَك لأجلِ الحسَرات، فيفيدُ التّعليلَ للنّهي، وتكونُ الحسراتُ باعثةً للتّلف وليستْ غايةً للفاعلِ؛ كقولهم: (قعدتُ عنِ الحرب جُبْنًا)، ويؤولُ المعنى إلى النّهي عنِ التّحسّر عليهم، لكنَّه إنَّما نهى عنِ الفعل المعلَّل بالتحسُّر إشارةً إلى أنَّ التّحسُّرَ يؤدّي إلى الإتلافِ والإهلاك، والحَسَراتُ جمعُ (حَسْرة) مصدرًا؛ وإنَّما عبَّر تعالى بها؛ تصويرًا لحالِ نبيِّنا ﷺ معَ النّاسِ، الذين يدعوهم إلى دينِ الله تعالى؛ وما يكونُ عليه مِنَ الغَمِّ على ما فاتَه مِن اهتداءِ هؤلاءِ الّذين زُيِّن لهم سوءُ عملهم فرأوه حسَنًا، والنَّدم عليه؛ كأنَّه انحسَر عنه ما حمَلَه على ما ارتكَبَه، أوِ انحسَر قواه مِن فَرْطِ غَمٍّ، أوْ أدركَه إعياءٌ عن تدارُكِ ما فرَطَ منه[1]، وكأنَّ النّبيَّ ﷺ اعتراهُ وألَمَّ به حَسرةٌ؛ مِن أجلِ التَّزيينِ المذكورِ، ونتيجتِه السَّيِّئةِ.

نُكْتةُ إيرادِ الجَمْعِ جمعَ قِلَّةٍ في ﴿حَسَرَٰتٍ﴾:

فـي الجـمـع تعظيمٌ لدعوةِ رسولِ الله ﷺ النّاسَ

عبّر النّظمُ بالجمعِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾؛ للدَّلالة على تضاعُفِ اغتمامِه ﷺ على أحوالِهم، أوْ على كثرةِ قبائح أعمالِهم الموجِبةِ للتَّأسُّفِ والتَّحسُّر، أوْ قصدًا إلى التَّنْبيه على إرادة أفرادٍ كثيرةٍ مِن جنس الحسْرة؛ لأنَّ تلفَ النَّفْس يكون عندَ تعاقُبِ الحسَرات الواحدةِ تلوَ الأُخرى؛ لدوام المُتحسَّرِ منه؛ فكلُّ تحسُّرٍ يترك حزازةً وكمدًا في النَّفْس حتَّى يبلُغ إلى الحدِّ الذي لا تُطيقُه النَّفْسُ؛ فينفطرُ له القلبُ[2]، ولعلَّ التّعبيرَ بالقلّة إشارةٌ إلى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 170، والراغب، المفردات: (حسر).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 206، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 170، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 266.

أنَّ أدنى التّحسُّر لا يليقُ بهم، لأنَّهم مارسوا الضَّلال بشتى صورِه وأنواعِه، وفي الجملةِ بأكملِها كنايةٌ عن شفقةِ الله تعالى ورحمتِه بحبيبِه ﷺ أنْ لا يتحسّرَ على مآلِ الكافرين؛ لأنّ المحبَّ يطلبُ من حبيبِه أنْ يشعُرَ بالسَّعادةِ والرّاحةِ، وأنْ لا يغتمّ لمصيرِهم.

التَّوْجيهُ البلاغيُّ للقراءتَين في: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾:

قرأ أبو جعفر: ﴿فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ﴾ بضمِّ التّاءِ وكَسْرِ الهاءِ، والفعلُ المنهيُّ فيها مِن (أذْهَبَ)، والمعنى على أنَّه نهيٌ للرَّسولِ أنْ يُذْهِبَ نفسَه، وقرأ الباقونَ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ بفتح التّاءِ والهاءِ؛ وهي مِن (ذهَبَ)، والمعنى على أنَّه نهيٌ لنفسِه؛ وهو كنايةٌ ظاهرةٌ عن نهيِه[1]، وتعدُّدُ القراءةِ داعٍ لزيادةِ التَّأمُّلِ في المعنى، فتَهتدي النّفسُ إلى المقصود، وهذا كلُّه تثبيتٌ لقلبِ رسولِ الله ﷺ، وتسليةٌ له، ومِن ورائِه مَنْ يقتدي به؛ لأنَّ حالته هذه "حالةٌ يُعانيها الدُّعاة كُلَّما أخلصوا في دعوتِهم، وأدركوا قيمتها وجمالَها وما فيها مِنَ الخير، ورأَوْا النّاسَ في الوقتِ ذاتِه يَصُدّون عنها، ويُعرِضون"[2]، ويستفادُ من نَهْيِ النَّفس أنَّها محلُّ الإدراكِ، فخاطبَ النّفسَ ناهيًا لها عنِ التّحسُّرِ والإيلام.

القراءتانِ تَتعاضدانِ في إبرازِ غايةِ شَرَفِ نَفْسِ نبيِّنا ﷺ

سِرُّ فَصْلِ تذييل الآية:

فُصِلتْ جملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ عمّا قبلَها؛ لاختلافهما خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنىً، ولأنَّها نِتاجُ ما قبلها؛ فمَن كانَ بيدِه إضلالُ العبادِ وهدايتُهم - على جهةِ خَلْقِ أسبابِ ذلكَ - ؛ كانَ عليمًا بما يَصنعونَ لا محالةَ، وكانَ مُجازيَهُم على ما يكونُ منهم في الدُّنْيا مِن أعمالٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ واقعًا

يا حِلْمَ اللهِ على صَنيعِ هؤلاءِ المُزَيَّنِ لهم، المُكذِّبينَ لنبيِّهِم!

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 352، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 462 - 463، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 1458.

(2) طه السيد، نفي التسوية في الذكر الحكيم دراسة بلاغية تحليلية: 2/ 1458.

في جوابِ مَن سأَل عمّا يفعلُ اللّه بهؤلاءِ الذين زُيِّن لهم سوءُ عملهم فرأوه حسنًا؛ فإنّهم يُؤذون أولياءَ اللّه، ويشتدُّ أذاهُم[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ جوابًا عن سُؤالٍ مُتعلِّقٍ بخلقِ الضَّلالةِ والهداية، فأجابَ بأنَّه يختارُ لهمُ الضّلالةَ والهدايةَ؛ لأنَّه عليمٌ بالَّذي يَصنعونَهُ عندَ سَماعِ الآياتِ والمَواعظِ النّبويَّة، ويحتملُ أنْ يكون جوابًا عن سؤالٍ يتعلّقُ بالنَّهيِ عنِ التّحسُّر على مصيرِهم ومآلِهم، بأنَّ اللّه عليمٌ بالَّذي يصنعونَهُ من مَكرٍ وإيذاءٍ، فلا يَنبغي أنْ تُشفِقَ عليهم.

داعي التَّوكيدِ في تذييل الآية:

تـأكـيـدُ الـخـبرِ يُراعي أكثرَ مِن جهةٍ

أكَّد القرآنُ مضمونَ جملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ معَ (اسْميَّةِ الجملة)؛ تنبيهًا على خطَرِ مَقامِ المُجازاةِ على قَبولِ التَّزْيين، وأثَرِه السَّيِّءِ؛ من رؤيةِ الحَسَنِ قبيحًا، والقَبيحِ حَسَنًا، وعلى صعوبةِ مَقامِ مواجهةِ التَّزْيين؛ قَبولًا ورفضًا؛ فمَن لم يُثبِّتْ نفسَه بغايةِ جهدِه زَلَّ لطولِ إملائِه تعالى لهم، وحِلْمِه عليهم، وفي توكيدِه تمثيلٌ لحالِ رسولِ اللّه ﷺ بحالِ مَن أغفلَهُ التَّحسُّرُ عليهم عنِ التَّأمُّلِ في إمهالِ اللّهِ إيّاهُم[2]، ومَن زُيِّن له سوءُ عمله فرآهُ حَسَنًا من شأنِه أنْ يكونَ لسانُ حالِه مُنْكِرًا لمضمونِ الجملةِ، فأُكِّدَ له؛ لِلَفتِهِ إلى وقوعِه على جِهةِ التَّوكيدِ والتَّحقيق.

سِرُّ إظهارِ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾:

هـذا الإظـهـارُ يُشبِه الالتفاتَ في فائدتِه العامَّةِ

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ على جهة الإظهار في موضع الإضمارِ؛ لسبْقِه بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾؛ لإفادةِ كمالِ التَّرهيبِ مِنَ الجَزاءِ المُترتِّبِ على علْمِه تعالى بصنيعِهم، وكمالِ تسليتِه ﷺ، وحسَّنَ هذا الإظهارَ انتقالُ الحديثِ مِن كونِه عنِ اللّه تعالى في جملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 206.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 206.

مَن يَشَآءُ﴾ إلى الحديثِ عن نبيِّه ﷺ في جملة: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ ثم جاءَ الحديثُ عنه تعالى في آخِرِ جملةٍ في الآيةِ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بـ﴿عَلِيمُۢ﴾:

ما أضعفَ التَّزْيينَ والمُزيّنَ والمُزيَّنَ له!

عبَّر القرآنُ بصفة العِلْمِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ اللهَ تعالى لا يخفَى عليه شيءٌ يَتعلَّقُ بالمُزَيَّنِ لهم سوءُ عَمَلِهم، فيَرَوْنَه حَسَنًا، وبالمُزَيِّنِ لهم ذلكَ؛ فإنَّهم جميعًا يسلكونَ مَسالكَ الخِداعِ والكذبِ، وما جرى في هذا الطَّريق مِنَ المعنَى؛ ففي الإخبارِ بعِلْمِه تعالى ترهيبُهُم، أو إشارةً إلى أنَّ إضلالَهُ مَن يشاءُ وهدايتَه مَن يشاءُ جارٍ على كمالِ علمِه بالَّذي يَصنعونه، فلم يكُن في إضلالِه وهدايتِه إلّا عادلًا حَكيمًا.

دلالةُ صيغةِ المُبالغة في ﴿عَلِيمُۢ﴾:

علمُه تعالى هو العلْمُ الشّامل

نظَم القرآنُ صفةَ العِلْمِ على صيغةِ (فعيل) في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، وهي مِن صيغِ المبالغةِ؛ للدّلالةِ على أنَّه تعالى يعلمُ ما في أنفسهم، وما يصنعون مِمّا يخفَى على المخلوقينَ؛ فيقوَى إفادةُ وعيدِهم وترهيبِهم، وتقوَى التّسليةُ للنّبيِّ ﷺ وللمُؤمنين.

معنَى (الباء) ودلالةُ التّعبيرِ بها في ﴿بِمَا﴾:

ليس كمِثْلِ علْمِه تعالى بأحوالِ العباد علمٌ

(الباءُ) حرفٌ لا يخلو مِن معنى الإلصاقِ عند المُحقِّقينَ مِنَ العلماءِ؛ فتفيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ شِدَّةَ علمِه تعالى بصنيعِ هؤلاءِ المُزيَّنِ لهم، وكمالَ هذا العِلْمِ؛ فيكونُ الوعيدُ أعظمَ، والتَّهديدُ أقوَى، والتَّرهيبُ أشدَّ، والتَّسْليةُ أزيدَ.

معنَى (ما) وعلّةُ التَّعبيرِ بها:

علمُ اللهِ مُحيطٌ بهم وبأعمالِهم ومَصنوعاتهم

كلمةُ (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ مصدريَّةً، والمعنى: واللهُ عليم بصُنْعِهم؛ وعليه يكونُ في التَّعبيرِ إبلاغٌ في تقريرِ علمِه تعالى بأعمالهم الصّادرةِ منهم، وأنْ تكونَ موصولةً؛

والمعنى: واللّه عليم بالّذي يصنعونَه من أشياءَ ومصنوعاتٍ؛ وعليهِ يكونُ التَّعبيرُ ناظِرًا إلى عِلْمِ اللّه تعالى بهم؛ ذاتًا وصفاتٍ، وأنَّ ما يَصْنعونه؛ وهم يُخْفونه عن غيرِهم مِنَ الخَلْقِ معلومٌ للّه تعالى؛ ففي الموصوليَّةِ تحقيقُ مضمونِ الجملةِ؛ مِنَ الحُكْم بعلْم اللّه بما يصنعونَ، والإبهامُ في (ما) تصويرٌ لخفيِّ أعمالِهم التي يُؤْذونَ بها نبيَّهُم وأهلَ الإيمانِ، ومَدُّ الألفِ فيها تصويرٌ لكثرةِ هذا الأذَى.

علّةُ التّعبيرِ بالصُّنْعِ في ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾:

أفعالُهم ضدَّ الإسلام والنّبيِّ تحوّلَ لصناعةٍ ماهِرة

لّما كانَ التَّعبيرُ بالتَّزْيين يوحي بتعمُّد هذا الصِّنْفِ المُزَيَّنِ له، واعتمادِه على الحيَل وطُرُق الخداع وأساليبِ الأوهام حتّى صار ذلك سجيَّةً فيهم، وظَنّوا أنّهم يُجيدون ويُتقنون ما يفعلونَ عبَّر القرآنُ بالصُّنع؛ لأنَّ الصُّنْع إجادةُ الفِعْلِ؛ قال البقاعيُّ: "﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي: مِمّا مُرِّنوا عليه، وانطبعوا فيه مِن ذلك، حتى صار لهم خُلُقًا، يبعُد كلَّ البعد انفكاكُهم عنه"[1]، وفي التّعبير به أيضًا إشارةٌ إلى أنَّهم يُدبِّرون مكائدَ للنّبيِّ ﷺ وللمسلمين؛ فيكونُ هذا الكلامُ إيذانًا بوجود باعثٍ آخَرَ على النَّهْي عنِ الحَسْرة عليهم[2].

دلالةُ المضارعة في ﴿يَصْنَعُونَ﴾:

المُـزَيَّـنُ لهم يجتهدون في فِعْلِ الشَّرِّ

نظَم القرآنُ معنَى الصُّنْعِ فعلًا مضارعًا، فقال: ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾؛ دلالةً على تَكْرارِ أفعالِهم، واستمرارِها، وكثرتِها؛ حتَّى صارَ لهم صنعُ الشَّرِّ الذي هو نتيجةُ التَّزْيين خُلُقًا، ودَيْدَنًا لهُم؛ فالمُضارَعةُ تُصَوِّرُ حركيَّةَ أفعالِهم، وانفعالَهُم بالتَّزْيين، وشِدَّةَ تأثيرِ التَّزْيين فيهم، بقي أنَّ الجملةَ بتمامِها كنايةٌ عن معنيَين مُتضادّين باعتبارِ المُخاطَب؛ فبالنِّسبةِ للنّبيِّ ﷺ تطمينٌ له ودفعٌ للحسَرات على مَصيرهم، وبالنِّسبة للمزيَّنِ لهم الوعيدُ والتّخويفُ من مآلهم السّيِّءِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 206.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 267.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»